(١٠)

حقية الناس
وأسوة العبودية للحق

حديث الجمعة

١٨ ربيع الأول ١٣٨٠ هـ - ٩ سبتمبر ١٩٦٠ م

أستغفر الله وأتوب إليه. وأشهد أن لا إله إلا الله، وأن لا موجود بحق إلا هو. وأشهد أن محمدا عبده ورسوله - والذين معه - أشداء على الكفار، رحماء بينهم.

وأحمد الله وأشكره أن هيأ لنا فرصة التواجد في أمته. نشهد معه أن لا إله إلا الله، ونشهد معه أن محمدا رسول الله. ونعلم معه أن عباد الله يقومون بالله ورسوله في قيامهم، ويصدرون عن الله ورسوله فيما يصدر عنهم، ويؤمنون بما يعلمون، ويؤمنون أن العبودية لله شرف الكينونة لكل كائن، وسعادة العقل لكل عاقل، وأمان النفس لكل حي، ودوام المعنى للدائم بها، في دوام الله.

إن العبودية لله، والربوبية على الناس، وحَقّية الناس، وحَقّية الكون، إنما هي مجالات في إنسان الله، من إنسانية الله..... لا بداية لها ولا انقطاع لظهور معانيها، ولا تعطل لطبع الخلق بها بطابع الحق فيها في مرجعهم إلى الله، طلبا للعبودية لله وللالتحاق بإنسانيته... تتزايد لا تتناقص، وتتواجد لا تفتر ... في صور الخلق، بخلقهم ثم تحقيقهم، بما تخلقت به وبما تحققت به إنسانية إنشائهم وإنسانية مرجعهم.

إن الفهم في رسول الله، هو عين الفهم في الله، وعين الفهم في الإنسان، وعين الفهم في حقيقة النفس من كل كائن...

إن رسول الله، بمعنى صفة الله في هديه عن طريق رسله، إنما هو معنى في الحقيقة الكبرى يعز على العقل نوال إدراكه والفهم فيه عزة الحقيقة على نوال إدراكها، إلا بحقها والتحقق بها في الفناء عن النفس، والتخلي عن كثاب الذات من الكون بمحبة الحقيقة في محبة الله، وبمحبة الحق من الله في محبة الله من الحقيقة، وبمحبة الحقيقة من المعروف في محبة المعلوم بالعلم عن وجوده، بقيام العلمية عليه علما

على معروفه وموجوده. إن الحركة والسكون لله وفي الله وبالله.. السكون لصمدانيته، والحركة لصفاته بمفردات وجوده، ومفردات معانيه، تحملها أسماؤه، وتظهرها آلاؤه.

الإنسان في ذلك لذلك جماعه مفرداته من الله، فالإنسان علم على الله، والإنسان أسماء لله، والإنسان كتاب لله، والإنسان آلاء لله، والإنسان آيات لله، والإنسان جماع حقائق الله.. الله معروفه، وهو في نفسه لنفسه من الله معروفه وموصوفه.

الإنسان من الله وجهه وظهوره، ومن الكون أصله وخلاصته، مبتدؤه وثمرته، وجوده وصفوته.

هذا كلام جميل يقال.. وهذا أمل جميل يُشجع به النـــاس.. يُثر صلاحهم كما أنه ينتج طغيانهم.. يصلح به الصالح من الناس، ويطغى به الطاغوت من الناس.

هدانا رسول الله بمسلكه، وبسنته، وبذاته، وبأحواله، وبمعارجه، وبتدانيه، وبتصاعده عنا، وببواقيه فينا.. هدانا بكل ذلك سواء السبيل حتى نرى فيه طريقا وسبيلا ممهدا نسلكه لأنفسنا سيرا وتخلقا، لا يائسين من الله إن طال بنا المسير، ولا متخلفين عن الله إن أبطأ لنا التحقيق.

وأوصانا بالصبر والصلاة، وجعل في الصبر الرجاء والالتجاء، وجعل في الصلاة الصلة والجزاء طريقا مذللا، وعطاء ميسرا، ومعراجا ممهدا، وبابا مفتوحا مجددا.

أعلمنا وعلمنا مما علم ومما علم.. أعلمنا ما أمر بتبليغه للناس، وعلَّمنا ما خُير فيه، وأقام فينا ما احتفظ به لنفسه فيمن صار منا منه لنفسه، وبمن صار له منه صحبه، وفيمن آل به أمته.

إن المعرفة عن محمد هي المعرفة عن الحياة. إن المعرفة عن محمد هي المعرفة عن النجاة. إن المعرفة عن محمد هي المعرفة عن الخلاص.

إن محمدا بيتا وضع من غيب، مدانيا الناس من الملأ الأعلى من عالم الله من الإنسان. وإن محمدا بيتا رفع لله وبيوتا تُرفع إلى الله شوقا إليه وحبا له، وقد أدت وظائفها في الناس، وجَمعت أبناءها من الناس، ودخلها أهلها من الناس. إن محمدا في هذا إنما يقوم به ويقوم فيه في ظل قانون الله الحاكم للوجود، المبدع بقدرته، القائم بإرادته، الحقِّي في الإعلام عنه.

إننا جميعا فينا ما نعلم، وفينا ما لا نعلم، في وجودنا على ما نحن عليه. فنحن لا نعلم من أين جئنا؟ ونحن لا نعلم إلى أين نصير؟ - إلا ما أعلمتنا رسالات الله وقمنا فيه بعقائدنا - ونحن نعلم أننا من الأرض كان تكويننا، وإلى الأرض يؤول تكويننا.

ولكن الله فيما حمَّل رسلَه من بلاغ، وفيما أبرز بهم من كتاب، وفيما أقام بهم من سنة في الناس، وعد - ووعده الحق - أن الناس سيأتي عليهم زمان تعلم فيه نفوسهم ما قدمت وأخرت. يأتي عليهم زمان وهم في السماء الدنيا لهذه الأرض. {في السماء رزقكم وما توعدون}[1]، (من مات فقد قامت قيامته)[2]. كما يأتي على الناس زمان تعلم نفوسهم ما قدمت وأخرت كما وعدهم وهم على هذه الأرض، فلا يمتنع عليهم إدراك ذلك.

{ويسألونك عن الساعة، أيان مرساها؟ فيمَ؟ أنت من ذكراها؟ إلى ربك منتهاها}[3] ...

يوم يكون الناس على ما أردت لهم من متابعتك - وقد أرسلتك للكافة وجعلت بك الأسوة -أأنت مع ربك الآن أم أنت مع أرضك؟ ألست مع ربك؟ إلى ربك منتهاها...

فيحمل الرسول إلى الناس هذا التعريف وهذا الهدي من الله له ولهم، وهذا العلم عن الوجود فيه إلى الناس ولهم. (لكل منكم ساعة)[4].

ومتى القيامة؟ فيقول لهم (من مات فقد قامت قيامته)[5]، (وما مات امرؤ إلا ندم)[6] وكم من ميت لم يمت وكم من حي لم يحيا! (موتوا قبل أن تموتوا)[7] حتى تقوم لكم قيامة، وتقيمون أنتم القيامة بإدراك قيام الله عليكم، ويقين قيام الله بكم، وبجنة قيام الله فيكم، وبشهادة قيام الله معكم. أليس هو معكم أينما كنتم؟ وهو أقرب إليكم من حبل الوريد؟

ويهدى الله إلى رسوله - الذي قامت قيامته، والذي انقضت ساعته، والذي كرمت وشرفت عبوديته - فيأمر الناس أن يدخلوا في عباده ممن عرفوا.. يأمر النفوس التي لم يكمل نضجها أن تدخل مطمئنة في عباده، {يا أيتها النفس المطمئنة.. ادخلي في عبادي}[8] وأن هذا الدخول إن دخلت فقامت وأقامت ففي الجنة أقيمـــت. {وادخلي جنتي}[9] ...

إن عبد الله اتسع لما لم يتسع له الكون بسمواته وأرضه من الوعي عن الله... ألم يقل الله (ما ظهرت في شيء مثل ظهوري في الإنسان)[10]؟ ألم يقل (لم تسعني أرضي ولا سمائي، ووسعني قلب عبدي المؤمن)[11].

إن محمدا والذين معه.. إن محمدا عبد الله والذين معه من النفوس المطمئنة التي دخلت في عبد الله.. التي دخلت في عهد عبد من عباد الله.. التي دخلت في عبد هو كون لله، وجنة من جنانه.

إن محمدا رسول الله والذين معه نالتهم الطمأنينة والعزة، نالتهم السكينة والخلاص. آمنوا بما أنزل على محمد - وهو الحق من ربهم - فبدل الله سيئاتهم حسنات، وغفر لهم أنفسهم وذواتهم {فكفر عنهم

سيئاتهم وأصلح بالهم}[١٢]، يؤمنون بالله يعرفونه، يؤمنون بالحق يحسونه، يؤمنون بالوجود الحقي يسكنونه، يؤمنون بأنفسهم إيمانهم برسوله، يؤمنون برسوله إيمانهم بربهم.

لقد أصبحوا بمعانيهم، وبمعاني رسول الله فيهم، وبمعاني الحق عليهم، به يقومون، وبه يشهدون، وبه يقدرون، وبه يعلمون، أصبحوا قياما واحدا، وحدانيته الله في وحدانيتهم به بوحدانيتهم برسوله، وحدانية الله يقيمون، وحصن لا إله إلا الله يدخلون، وشهادة أن لا إله إلا الله يشهدون.

أبهذا يتحدث المسلمون؟ أم بهذا يؤمنون؟ أم لهذا يعلمون؟ قليل منهم المفلحون، وأقل منهم الشاكرون. إن بهم الكثير من الذاكرين، ولكن بهم الأكثر من القالين. يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فما يزدادون بدينهم إلا مقتا من رب العالمين. وقد بلَّغَهم {كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون}[١٣].

إن الخير في محمد، وإن الخير في أمة محمد. إن الخير في محمد قبل أن يولد محمد بن عبد الله من آمنة الله وهبا من الله، إذ أخذ له ميثاق النبيين، له يشهدون، وبه يَعْلمون، وبه في الناس يهدون ويقومون، ولمقامه يستشرفون فيوعدون، وما زالوا يطلبون، وما زالوا بالمقام يتحققون، وما زالوا فيه يعرجون، بين ظاهرين في البشرية من رب العالمين، وبين عارجين في معارج الإنسان في الأفق المبين، لا تتناهى لهم معارج في طبقات الإنسان تتصاعد عطاء غير مجذوذ، جزاء وفاقا من قانون عدل الله القائم في ظل قوانين رحمة الله في ملكوت لانهائية الله.

بهذا جاء كتاب الله بين أيديكم، وبه جاء حديث رسول الله بين ظهرانيكم، وبه أتت وتأتي سنة رسول الله بين عوالمكم فيمن اقتداه واقتفاه، فسار على أثره، وقام على سنته، وعمل بما عمل به، فتحقق له ما تحقق له، فدعا إلى الله على بصيرة - هي بصيرة من تابع - متابِعا لا تنتهي متابعته، لمتابَع لا تنتهي معارجه ...

هذا رسول الله وقومه. هذا رسول الله وأمته. هذا رسول الله وشرعته. هذا رسول الله وطريقه. هذا رسول الله ودينه {دينا قيما}[١٤]، انْبَتَّ فيه الناس فما أفلحوا، ويئس منه الناس فما أوغلوا، وازور عنه الناس فما برفق دخلوا، ولا بعقل تابعوا، ولا وراء نور سلكوا! ولا فيه جاهدوا، ولكن الدنيا طلبوا وللدين فقدوا!

حُفَّت الطريق بالمكاره فكرهوا الطريق، وحفت النار بالشهوات فطرقوا أبواب النار عشقا وغراما. أساءوا العنوان فساء ما صدر منهم من بيان، وانحرف ما صدر منهم من زعم علم باسم العرفان. حرفوا الكلم عن مواضعه، حرفوا كلمات الله - وهي بينهم وهم كلماته - عما يليق أن توضع فيه في مواضعها من التكريم بالحياة، وسلكوا بها عكس الطريق، وأوردوها مهالك الحياة، ومنعوا مواعينها ماء

الحياة، {يحرفون الكلم عن مواضعه}[١٥] بانحرافهم في سلوكهم، وفي حياتهم، وفي وعيهم، وفي طلبهم، وفي مرادهم. حرفوا الكلم عن مواضعه فيما جاءهم من مُحكمٍ من كتاب الله له موضعه من حياتهم، فوضعوه في غير موضعه من أوضاعهم.

أطاعوا الطغيان باسم الرحمن، وتعالوا بالسلطان باسم الحي القيوم، وما للربوبية للكون عليهم خَلقَهم ولكن للربوبية على الكون بالعبودية له أوجدهم، فتركوا ما هم أرباب عليه بعبوديتهم، واستشرفت نفوسهم للاستعلاء على عرش ربهم، يجلسون مجلسه ولا يطلبون فيه مجالسهم. يفعلون ذلك بوهم الدين، وباسم الديان طورا، وبوهم الرحمة، وباسم الرحمن يوما، وبوهم العلم، وباسم العرفان قوما، وهم من كل حق في ذلك خالون.. نفوسهم جوفاء، وعقولهم عوجاء، وقلوبهم خلواء، وأفئدتهم هباء، وذواتهم إلى الفناء.

شياطين الإنس يوحي بعضهم إلى بعض، وشياطين الجن يوحي بعضهم إلى بعض، وشياطين الجن والإنس يوحي بعضهم إلى بعض.

اختلط الحابل بالنابل، وضاع الحق أمام أهله، واختفت بين الناس أبواب الحق لطالبيها، وأغلقت حتى على طارقيها، وغابت عنهم معارج الحق لراجيها، وذلك بفعل الناس، وبصنع الناس. يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، يريدون أن يطفئوا نور الله في نفوسهم، يريدون أن يطفئوا نور الله في نفوس الناس، يريدون أن يفرضوا ظلام أنفسهم باسم النور على الناس، وأن يفرضوا باسم الله موات نفوسهم على الناس.. ولكن الله يمهل ولا يهمل يأبى إلا أن يتم نوره ولو كفر الكارهون، ولو كره الكافرون، ولو كفر الكارهون لنوره في ظلام حياتهم في ميت قيامهم. وهو الذي يهدي السبيل لشاكر ولكفور.. يهدي النجدين لصاعد بنوره، ولمنحط بظلامه، لسار في طريق التصاعد والتكامل، أو لمتخلف ساقط في هاوية نفسه. {بيده الملك وهو على كل شيء قدير}[١٦].

استهدوا الله لأنفسكم.. هدانا الله وإياكم. وابدأوا بأنفسكم حتى إذا ما اهتدت كان لكم أن تبدأوا بمن تعولون، حتى إذا ما كان لكم توحد في صحب فيمن تعولون، فبنور الله انتشروا في الناس. أفمن يجعل الله له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها؟ ولكن ابدأوا بأنفسكم أولا، ولا تتجاوزوا أنفسكم حتى تبدأ أنفسكم الحياة.. فإن بدأت في معارج الحياة فلا تدعوا لها ما ليس بها، وقوموا بها بما كان لها.. لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، في حدود وعيكم، وفي حدود إدراككم، وفي حدود ما قام الحق بكم.. لا يكلف الله نفسا إلا وسعها.

هذا ما جاء به الدين. وهذا ما هدانا إليه رسول اليقين من رب العالمين به نهتدي وبه نعمل، وإليه نهدى إن شاء الله.

اللهم كن لنا في الصغير والكبير من شأننا. اللهم تولَ عنا أمرنا. اللهم خذنا منا. اللهم تكفل بنا. اللهم قوم فيك طريقنا وسبيلنا. اللهم اربط فيك قلوبنا وجمعنا. اللهم يسر بحكمتك ورحمتك ونعمتك طريقنا. اللهم ولِ أمورنا خيارنا، ولا تولِ أمورنا شرارنا بما كسبنا، اللهم برحمتك فعاملنا، ومن قوانين عدلك فأقلنا. اللهم بدل أمثالنا، وأصلح فيك شأننا، واغفر ذنوبنا ووجودنا. اللهم ارزقنا لا إله إلا الله، وأدخلنا في لا إله إلا الله، وأقنا بلا إله إلا الله، وانشرنا بلا إله إلا الله، وانشر بنا لا إله إلا الله.

اللهم أنر بنورك في نور نبيك ظلام قلوبنا. اللهم اجعل لنا نورا ينير قلوبنا وعقولنا. اللهم زد فينا نورك حتى تمحى ظلمة نفوسنا، وحتى ينبلج الطريق إليك أمامنا، وحتى تنشط في الطريق همتنا برحمتك، وبعزتك، وبقدرتك... لا إله إلا أنت، ولا معبود سواك.

أضواء على الطريق

تلخيص عن أحاديث السيد الروح المرشد (سلفربرش) في دائرته بالقاهرة:

إن رسول الله لم يُعرف بعد لعالمكم. فلا غرابة إذا لم يقدر عند عالمكم على ما يجب أن يكون، وعلى ما يليق به. وإذا كان هو قد حرص على تأسيس رسالته وضمان بقائها بزرع نواتها في أرضكم، إلا أن عالمكم لم يتعهدها لتتصاعد شجرة رحمة لكم بعد. لقد أحكم رسول الله أمره بينكم، ولكن عالمكم فرط في أمر نفسه من أمر متابعته والانتفاع به وبغرسه.

إذا قربت لأذهانكم صورة له لمجرد التقدير تستطيع إدراكها عقولكم، فإنه جماع ما ظهر على أرضكم من رسالات قامت بها وجوهه من روح الله به، بدءا من نوح إلى موسى ممن ذكرتم من أبناء آدم من وجوهٍ لله وكلمات له، كان رسول الله لها جماع.

إنه ما بعد آدم دائما. وإنه ما قبل آدم دائما. هذه هي قضيته في الحقيقة، ورسالته في الوجود. إنه الحق من الله في آدم، وإنه الحق من الله بآدم، وإنه الحق من الله لآدم. هو روح قدس الله. إنه روح عظيم لروح الحياة اللانهائي. هو جماع وجوه الله لعالمكم، وهو معنى الله في الحقيقة عندنا.

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة الذاريات - ٢٢

٢ حديث شريف: "إذا مات أحدُكم، فقد قامتْ قيامتُه، فاعبدوا اللهَ كأنكم ترَوْنَه، واستغفِروه كُلَّ ساعةٍ". أخرجه الديلمي في الفردوس، ورواه العسكري في الأمثال، وأبو نعيم في (حلية الأولياء)، وغيرهم.

٣ سورة النازعات - ٤٢:٤٤

٤ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٥ حديث شريف: "إذا مات أحدُكم، فقد قامتْ قيامتُه، فاعبدوا اللهَ كأنكم ترَوْنَه، واستغفِروه كُلَّ ساعةٍ". أخرجه الديلمي في الفردوس، ورواه العسكري في الأمثال، وأبو نعيم في (حلية الأولياء)، وغيرهم.

٦ من حديث شريف: "ما من أحد يموت إلا ندم. قالوا: وما ندامته يا رسول الله؟ قال: إن كان محسناً ندم أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئاً ندم أن لا يكون نزع." أخرجه الترمذي، وابن عدي، وأبو نعيم في الحلية، والبيهقي في الزهد، والديلمي في الفردوس، والبغوي في شرح السنة.

٧ حديث شريف. المحدث: الزرقاني، ولكن لم يثبت سنده، ويوافق الحديث الشريف: "كُنْ في الدَّنيا كأنَّك غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ وعُدَّ نفسَك في الموتَى". أخرجه البخاري.

٨ إشارة إلى سورة الفجر – ٢٧ ٢٩,

٩ سورة الفجر - ٣٠

١٠ مقولة صوفية تتناغم مع تكريم الله للإنسان.

١١ إشارة إلى الحديث القدسي: "لم يسعني سمائي ولا أرضي ووسعني قلب عبدي المؤمن." ذكره الغزالي في "إحياء علوم الدين"، وفي أدبيات المتصوفة.

١٢ سورة محمد - ٢

١٣ سورة الصف - ٣

١٤ سورة الأنعام - ١٦١

١٥ سورة النساء - ٤٦

١٦ سورة الملك - ١